هذا الكتاب

يصدر بمناسبة حلول القرن الخامس عشر

لهجرة سيد المرسلين ورسول رب العالمين

محمد بن عبد الله

صلى الله عليه وسلم

نسأل الله سبحانه وتعالى أن

يجعله خيرًا ورحمةً للعالمين، آمين

دار الكتب الاسلامية، دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى

القاهرة — بيروت

الأئمة الأربعة

(١)

الإمامُ الأعظمُ
أبوحَنيفَة النُعمَان

Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

الدكتور
مصطفى الشكعة

الناشرون

دار الكتب الاسلاميه

دار الكتاب المصرى — القاهرة

دار الكتاب اللبنانى — بيروت

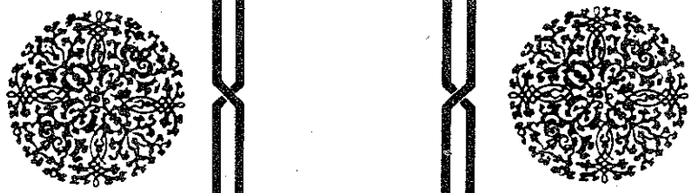

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر :

دار الكتاب المصرى
القاهرة ج.م.ع
٢٣ شارع قصر النيل ـ ص.ب ١٥٦
ت ٧٤٤١٦٨/٧٥٤٣٠١ - برقيا : (كتامصر)
TELEX :92336
ATT:134 K.T.M. CAIRO

دار الكتاب اللبنانى
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا : كتالبان
تليفونات : ٢٥١٢٩٤ / ٢٣٧٥٣٧
TELEX :K.T.L 22865 LE
BEIRUT

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله سبحانه وتعالى وأسأله أن يصلى ويسلم على سيدنا محمد سيد الرسل وخير الأنبياء وخاتمهم ، وأن يجعلنا أهلا لشفاعته « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

إن الحديث عن أئمة المسلمين له من النفع والفائدة فى الدنيا والآخرة ما يجعل كل مسلم مطالبا بأن يعكف على قراءة سيرهم ، ودراسة فقههم ، واستلهام أفكارهم ، واقتفاء خطواتهم ، وإحياء آثارهم ، ذلك أنهم لم يكونوا مجرد فقهاء يوضحون للمسلمين قضايا دينهم ويستنبطون أحكام شريعتهم – ولو لم يكن لهم غير ذلك لكفاهم – ولكنهم كانوا رواد فكر ، وفرسان كلمة ، ودعاة إصلاح ، ومؤثلو مجد ، ومحققو عدل ، لم يدخروا وسعا فى نصح السلطان إذا طلب المشورة ، فإذا لم يطلبها تطوعوا من تلقاء أنفسهم إلى فعل ذلك ، فقد كان الواحد منهم يتمثل الحديث الشريف : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » فوضعوا أنفسهم مواضع التكريم ، ونأوا بها عن مواطن الريب فى دنيا الفكر والسياسة ، وانتظموا قافلة الكرام من القادة ، يضيئون للناس الطريق ، وينيرون لهم السبيل ، مهما كان الطريق صعبا والسبيل غير ممهد .

وأئمة المسلمين من الكثرة بمكان ، ومن الفضل بحيث لا تخطئهم البصيرة النيّرة ، ولا تغمض عنهم العين الساهرة فى سبيل الله ، ولعل أوفرهم حظا من التعامل مع الشريعة السمحة والعقيدة الحنيفية هم أبو حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وجعفر الصادق بن محمد الباقر ، وزيد بن على زين العابدين ، وعبد الرحمن الأوزاعى ، ومحمد

ابن جرير الطبرى ، وداود الظاهرى . على أن أشهرهم جميعا هم الستة الأوائل ، أربعة منهم لأهل السنة ، والإمامان الآخران أحدهما للشيعة الجعفرية وثانيهما للشيعة الزيدية ، وإن كنا فى واقع الأمر لا نكاد نفضّل واحدا على الآخر ، فهم جميعا أئمة صدق وقادة إصلاح ، نسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء بما قدموا من علم نافع وقدوة راشدة .

أما وقد استخرنا الله أن نكتب عن هؤلاء الأئمة البررة لاستجلاء شخصياتهم ، واستبانة مناهجهم ، واستيضاح فقههم ، واستكناه فكرهم ، فقد رأينا أن تكون أولى الدراسات فى هذا الميدان عن الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت .

وتأبى الحقيقة المجردة إلا أن تسجل للإسلام صفحة ناصعة النقاء بفضل السماحة التى تسوى تحت رايته بين العربى وغير العربى ، فإن دستور الإسلام يسوى بين الناس جميعا ، وهم كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، فأبو حنيفة النعمان لم يكن عربى الأصول ، وإنما هو من أصول فارسية ، ومع ذلك فهو أول أئمة المسلمين زمنا ، وأبعدهم صيتا ، وقد تميز بأن أضيف إلى اسمه صفة الأعظم ، فيقال « الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان » ، وما ذلك إلا لعلمه وفضله وريادته وقوة إقناعه وبالغ حجته ، ولقد سئل الإمام مالك ذات يوم : هل رأيت أبا حنيفة ؟ فأجاب : نعم ، رأيت رجلا لو كلمك فى هذه السارية – يريد سارية المسجد – أن يجعلها ذهبا لقام بحجته .

وإلى الإمام أبى حنيفة ينسب تدوين علم الشريعة ، وكان يقال إن حلقته تضم ثلاثة أرباع العلم ، والربع الباقى ينازعهم فيه ، وهو الذى وضع آداب الحوار ، وطبقه على تلاميذه أولا ، كما أنه أول من ابتكر المنح المالية الدراسية ، وطبق هذا المبدأ على أكثر تلامذته بادئا بأبى يوسف .

وحتى لا يدفع بنا الإعجاب بالإمام الأعظم إلى الاسترسال ، فإننا نسارع إلى عرض المنهج الذى ارتضيناه لهذا الكتاب ، فنقرر أننا جعلناه فى عشرة فصول

ولما كان الإمام أبو حنيفة كوفى المولد والنشأة والإقامة ، فقد خصصنا الفصل الأول للحديث عن نشأته العلمية ، فقد أقنعه « الشعبى » أن يتحول من العمل فى السوق بائعا وشاريا إلى العلم والفقه ، ولقد راق لنا أن نتحدث عن البيئة العلمية فى العراق بعامة وفى الكوفة بخاصة ، وأشرنا فى هذا السياق إلى سعيد بن جبير والشعبى وإبراهيم النخعى .

وإذا كانت طبيعة الدراسة تقتضى التعرف على شيوخ الإمام وأساتذته ، لأن المرء فى علمه ثمرة غرسهم ، فقد خصصنا الفصل الثانى للتعرف على شيوخ أبى حنيفة الذين أشهرهم عطاء بن أبى رباح ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وهشام بن عروة بن الزبير بن العوام ، والإمام محمد الباقر ، وأخوه الإمام زيد ، وعبد الله بن الحسن بن الحسن ، كما كانت له محاورات نافعة مع الإمام جعفر الصادق ، على أن الشيخ الذى لزمه أبو حنيفة وجعل منه أستاذه الأصيل فهو حماد بن أبى سليمان الذى أحب الإمام أكثر من حبه لأولاده ، وقد بادله أبو حنيفة هذا الحب حسبما يتضح ذلك من التفصيلات التى يضمها هذا الفصل من الكتاب ، ومن المعروف أن الإمام أطلق على أكبر أولاده اسم « حماد » تيمّناً بشيخه ووفاء لفضله ، وقد بلغ من وفاء أبى حنيفة لشيخه حماد أنه لم ينفرد بمجلس علمى – مع أنه كان مؤهلا لذلك – إلا بعد وفاة الشيخ حماد .

أما الفصل الثالث من هذا الكتاب فقد أفردناه للحديث عن حلقة أبى حنيفة ، وهى حلقة فريدة بين ما عرف من حلقات العلم فى مختلف ديار الإسلام وأمصاره ، ولعلها الحلقة الوحيدة التى قيل عنها إنها كانت تضم ثلاثة أرباع العلم على النحو الذى أشرنا إليه قبل قليل ، كما أن تقاليد رفيعة فى الحوار والمناقشة قد أرسيت قواعدها بفضل هذه الحلقة العلمية المباركة ، إذ كانت القضية تطرح على التلاميذ فيناقشونها مع بعضهم البعض ، والإمام يوجه الحوار فى براعة يقظة وعمق راشد وأبوّة حانية ، حتى إذا انتهى الجمع إلى رأى بعينه ، طلب الإمام من أبى يوسف – كبير تلاميذ الحلقة – أن يدوّن المسألة ، فكانت الحلقة أشبه ما تكون باكاديمية علمية ، أو مجمع بحوث دينية على النحو الذى نعرفه فى زماننا

هذا ، وأما علاقة الإمام بتلاميذه فأمر ذلك يدعو إلى العجب والإعجاب ، ومن الخير أن نحيل القارئ إلى تفصيلاتها فى مكانها من هذا الفصل من الكتاب .

وأبو حنيفة كإنسان ، امتلك ناصية الخُلق السمح الرفيع الرفيع ، وكان شديد الورع والتقوى ، ومن منطلق هذا الورع رفض تولى القضاء ، وتعرض للأذى والإهانة بسبب هذا الرفض ، ولم يزده الأذى إلا إصرارا على موقفه ، وكان أبو حنيفة وفياً حليما فطنا أنيقا صدوقا جوادا بماله كريما ، ولم يكن متزمتا ولا عابسا ، وإنما كانت النكتة الفكهة تصدر عنه فتبعث الابتسامة على الشفاه ، وتزيح الكمد عن النفوس ، ومن ثم فقد خصصنا هذا الفصل الرابع للحديث عن صفات الإمام ومناقبه .

ولم يكن الإمام أبو حنيفة بمعزل عن الأحداث السياسية فى عصره ، وإنما كان يتابعها ويسهم فى صنعها بالرأى والفتيا والمال ، وقد كان متعاطفا مع آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانتصر للإمام زيد إبان ثورته على بنى أمية ، ولما قامت دولة العباسيين رحّب بقيامها أول الأمر ، فلما تنكبت الطريق السوى ناهضها ، ووقف فى صف محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم حين قاما بثورتهما على العباسيين ، ولما فشلت الثورة لم يبد الإمام ندماً على مشاركته فيها وإسهامه فى تمويلها ، وليس من شك فى أن ذلك كان من أسباب الجفوة التى قامت بينه وبين الخليفة المنصور ، وتبعا لذلك فقد ذهب قوم من كتاب التاريخ إلى أن أبا حنيفة مات مسموما فى بغداد بإيعاز من الخليفة العباسى ، إن هذا الموضوع الدقيق كان صلب الدراسة التى ضمها الفصل الخامس من الكتاب .

أما الفصل السادس فقد أفردناه لموضوع على جانب من الطرافة ، ألا وهو موقف أبى حنيفة من هدايا الخلفاء ، فقد كان للإمام نظرة متشددة فى هدايا الخلفاء ومن ثم كان يرفضها جميعا ، وهو فى الوقت ذاته يقبل الهدايا من سائر الناس ، أما حجته فى رفض هدايا الخلفاء فقائمة على شكه فى مدى كون مال الخليفة حلالا أم حراما ، فهو بالتالى مال مشبوه ، أما هدايا الأفراد فإنها من مال تعبوا فى جمعه من

حلال ، وكدوا فى كسبه بسبل مشروعة ، هذا من ناحية ، وأما من الناحية الأخرى فإنه – أى الإمام – كان يستطيع بعد فترة زمنية معينة أن يبادل الإنسان الذى هاداه بهدية أثمن من هديته ، علما بأن الإمام الأعظم كان يوزع الهدايا التى تصل إليه جميعا ولا يستبقى منها شيئا لبيته وذويه . وقد أثر فى هذا السبيل أن المنصور العباسى استدعى أبا حنيفة وقال له : لم لا تقبل صلتى ؟ فأجاب : ما وصلنى أمير المؤمنين بشىء من ماله فرددته ، ولو وصلنى بذلك لقبلته ، وإنما وصلنى من بيت مال المسلمين ، ولا حق لى فى بيت مالهم ، إننى لست ممن يقاتل من ورائهم فآخذ ما يأخذ المقاتل ، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذ الولدان ، ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذ الفقراء .

وأما هدايا الناس فقد ذكرنا أنه كان يقبلها ، ولكنه لا يستبقى شيئا لبيته أو أولاده ، وقد وصلت إليه ذات مرة هدية قوامها ألف نعل ففرقها جميعا على أصحابه ، ثم رآه الناس فى السوق بعد يومين يشترى نعلا لولده .

ولما كان لكل من الإمامين مالك والشافعى آراء بعينها فى هدايا الخلفاء ربما اتفق بعضها مع أبى حنيفة واختلف بعضها الآخر معه ، فقد أوردنا فى الفصل ذاته آراء كل من الإمامين الجليلين مالك والشافعى فى هذا الموضوع .

ولما كان الإمام – أى إمام – لايستحق هذا اللقب إلا بمؤهلات خاصة ، فقد خصصنا الفصل السابع للمؤهلات الخلقية والسلوكية والثقافية والعلمية التى جعلت أبا حنيفة أهلا لإمامة المسلمين ، ومن المعروف فى هذا السبيل أن الإمام أبا حنيفة كان يشرِّع للمستقبل ، وأنه عرف بكونه مدون علم الشريعة ، وأن الإمام الشافعى قرر فى هذا السبيل أن الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقه .

ولقد خصصنا الفصل الثامن لمصادر الفقه الحنفى التى هى الكتاب ، والسنة ، وقول الصحابة ، والإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والعرف . ولما كان مبدأ القياس قد أثار بعض الفقهاء على أبى حنيفة ، وحمل عليه بشدة بعض الأئمة المعاصرين له مثل مالك ومحمد الباقر والأوزاعى ، فقد أوردنا دفاع الإمام عن